الحديث الثالث

الأخذ بالأسباب مع الإيمان بالقدر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »[1].

شرح الحديث [2]

قوله (المُؤمن القوي) أي: عَلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ وَمَشَاقِّ الطَّاعَةِ ، وَالصَّبُور عَلَى تَحَمُّلِ مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلاءِ ، وَالْمُتَيَقِّظ فِي الأُمُور الْمُهْتَدِي إِلَى التَّدْبِير وَالْمَصْلَحَة بِالنَّظَرِ إِلَى الأَسْبَاب وَاسْتِعْمَال الْفِكْر فِي الْعَاقِبَة .

وقيل: القويّ البدن والنفس ، الماضي العزيمة ، الذي يصلح للقيام بالعبادات من الحجّ والصوم والأمر بالمعروف وغير ذلك مما يقوم به الدين .

وَقال النووي : الْمُرَاد بِالْقُوَّةِ هُنَا : عَزِيمَة النَّفْس وَالْقَرِيحَة[3] فِي أُمُور الآخِرَة، فَيَكُون صَاحِب هَذَا الْوَصْف أَكْثَر إِقْدَامًا عَلَى الْعَدُوّ فِي الْجِهَاد، وَأَسْرَع خُرُوجًا إِلَيْهِ ، وَذَهَابًا فِي طَلَبه ، وَأَشَدُّ عَزِيمَة فِي الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر ، وَالصَّبْر عَلَى الأَذَى فِي كُلّ ذَلِكَ ، وَاحْتِمَال الْمَشَاقّ فِي ذَات

---

[1]) صحيح مسلم : ك. القدر .

[2]) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ، ورياض الصالحين ، ودليل الفالحين ، وحاشية السندي على سنن ابن ماجة .

[3]) القريحة: قريحة الإنسان طبيعته التي جبل عليها لأنها أول خلقته . ويقال . لفلان قريحة جيدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع. لسان العرب

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله تعالى ، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات ، وأنشط طلبا لها ، ومحافظة عليها ، ونحو ذلك .

(خير) أفعل تفضيل، حذفت ألفه تخفيفاً **(وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)**

وقوله، **(وفي كلٍّ خير)** أي في كُلّ من القوي والضعيف (خير) لاشتراكهما في الإيمان .

وقوله، **(إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)**

(احرص) أي: استعمل الحرص والاحتياط (على) تحصيل (ما ينفعك) من أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك وعيالك ومكارم الأخلاق ، ولا تفرّط في ذلك .

(واستعن بالله) أي: اطلب المعونة منه ، وتوكل عليه ، ولا تعتمد على حركاتك ولا على أسبابك وحدها ، بل الجأ إليه في كل الأمور ، وتوكل عليه .

(ولا تعجز) بكسر الجيم . ومعناه: إحرص على طاعة الله تعالى ، والرغبة فيما عنده ، واطلب الإعانة منه سبحانه وتعالى على ذلك ، (ولا تعجز) ولا تكسل عن طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة، ولا تفرّط في طلب ذلك ، وتعاجز عنه ؛ فتنسب للتقصير، وتلام على التفريط شرعاً وعادة .

(وإن أصابك شيء) من المقدورات .

(فلا تقل : لو أني فعلت) كذا **(كان كذا وكذا)** كذا وكذا كناية عن مبهم، أي: لما أصابني .

و جملة (كان كذا) هي جواب (لو) فيكون فيه ركونٌ إلى العـادات، وربطٌ للمسببات بأسبابها العادية، وغفلةٌ عن حقائق الأمور، وهي أن كـلَّ شيء بقدر مقدور؛ فلذا قال: (وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ).

قوله: (ولكن قل: قدرُ اللهِ، وما شاءَ فعلَ، فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطانِ)

(وما شاء) أي: ما شاءه الله (فعل) لا رادّ لمراده، وهو على كل شيء قدير.

ففي هذا القول تنبيه على الدواء عند وقوع المقدور.

قال القرطبيّ: المُراد مِنَ الحديث:

أنَّ الّذي يتعيّن بعد وقوع المقدور التّسليم لأمرِ الله، والرّضا بما قـدّرَ، والإعراض عن الالتفات لِمَا فات، فإنّهُ إذا تذكّرَ فيما فاتهُ من ذلك فقـال: لو أنّي فعلتُ كذا لكان كذا، جاءتهُ وساوس الشّيطان، فلا تزال به حتّـى يُفضي إلى الخسران، فيعارض بتوهّم التّدبير سابق المقادير

وهذا هو عمل الشّيطان المنهيّ عنْ تعاطي أسبابه بقوله: فلا تقلْ لَوْ فـإنّ: لَوْ تفتح عمل الشّيطان.

وليس المُراد ترك النّطق بـ (لو) مُطلقًا إذْ قدْ نطقَ النّبيّ ﷺ بها في عدّة أحاديث، ولكنّ محلّ النّهي عن إطلاقها إنّما هوَ فيما إذا أُطلِقتْ مُعارضةً للقدر، مع اعتقاد أنّ ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور، لا ما إذا أخبر بالمانع على جهة أن يتعلّق به فائدة في المستقبل فإنّ مثل هذا لا يختلف في جواز إطلاقه، وليس فيه فتحٌ لعمل الشّيطان، ولا ما يُفضي إلى التحريم

قوله: (فإنّ لو تفتح عمل الشيطان).

(فإن لو) أي: إذا ذكرت على سبيل معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور

(تفتح عمل الشيطان) أي: وساوسه المفضية بصاحبها للخسران ؛ باعتقاد أنّ الأمر منوطٌ بتدبيرِ العَبْد ، وأنّ تدبيره هو المؤثّر .

أما إذا أتى بلوْ على وجه التأسّف على ما فات من الخير ، وعلِم أنه لن يصيبه إلا ما قدّر الله تعالى فليس بمكروه .

والنهي في : (فلا تقل ، لو أنّي فعلت كانَ كذا وكذا)

قالَ بَعْض العُلَمَاء : هَذَا النّهي إنّمَا هُوَ لِمَنْ قَالَهُ مُعتقِدًا ذَلِكَ حتمًا ، وأنّهُ لوْ فَعلَ ذَلِكَ لَمْ تُصِبْهُ قطعًا ، فأمّا مَنْ رَدّ ذَلِكَ إلى مَشيئةِ اللهِ تعالى بِأنّهُ لَنْ يُصيبهُ إلا مَا شاءَ الله ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا .

وكذا إذا قيلت (لو) في أمور مستقبلية وفيما لا اعتراض فيه على قدر كَحَديثِ (لَوْلا أنْ أشقَ عَلَى أُمّتي لأمَرْتهُمْ بالسّوَاكِ) وَشِبْهِ ذَلِكَ ، فَلا كَرَاهَة فِيهِ ؛ لأنّهُ إنّمَا أخبَرَ عَنْ إعْتِقَادِهِ فِيمَا كَانَ يَفْعَل لَوْلا المَانِع ، وَعَمّا هُوَ فِي قُدرتِه .

وكذا إذا قيلت (لو) تأسفًا على مَا فاتَ مِنْ طاعةِ اللهِ تعالى ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ أكثر الاسْتِعْمَال المَوْجُود في الأحَادِيث .

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner